فتح المسلمين اسبانيا

سبب الفتح:

فى سنة ٨٨ للهجرة[١] عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى إلى موسى ابن نُصَير بولاية بلاد المغرب (أفريقية الشمالية) فنزل القَيْروان وحارب طوائف البربر وأخضع قبائلهم فى زمن وجيز وعلّم أهلها الدين والقرآن وأخذ رهائن من قبائل مصمودة وصنهاجه وكتامة وهوّارة وحاصر طنجة وفتحها واستعصت عليه قلعة سبته فنجت من جيشه وكان حاكمها وقتئذ يوليان JULEAN من قِبَل ملك اسبانيا غيطشه WITIZA وكان من أسرته.

وعاد موسى من غزواته إلى القيروان وبلاد المغرب خاضعة لسلطانه، أهلها يدفعون الجزية أو دخلوا فى دين الله ومن هؤلاء أهل طنجة فإنهم اسلموا وبلغت حاميتها ١٩ ألف فارس من المسلمين تحت قيادة طارق بن زياد البربرى.

فى هذا الحين كانت مملكة اسبانيا ضعيفة الشوكة مزعزعة الأركان لقيام الثورات وانقسام الأهلين إلى احزاب وتباينهم فى الأغراض وعدم ملاءمة قانونهم المتخذ من قانون الرومان وعادات الجرمان وفَرْضِ القسوس على الرعايا ضرائب فادحة أثقلت كواهلهم لذلك خلعوا ملكهم غيطشه وقتلوه وانتخبوا آخر يسمى رذريق RODRIC ملكا عليهم وليس من بيت الملك بل من قوادهم وكان أولاد الملك المقتول وشيعتهم يترقبون الفرص للايقاع برذريق واسترداد المملكة إليهم وزاد الطنبور نغمة أن دنّس رذريق عِرض يوليان[٢] ونشأ عن ذلك أن أذعن حاكم سبته لطاعة موسى وحَرَّضه[٣] على فتح اسبانيا ووعده المساعدة وكشف له الغطاء

---

(١) كذا فى ابن حيان وفى ابن الأثير سنة ٨٩.

(٢) انظر نفح الطيب صحيفة ١١٩ من طبع بولاق.

(٣) قال المؤرخ رومى (يروى أن فريقًا من نصارى اسبانيا كانوا يحقدون على الملك رذريق فجاءوا وحرضوا موسى على فتح بلادهم واظهروا له سهولة الاستيلاء عليها وأن يساعدوه على =

عن سياستها الداخلية وأفهمه أن الاسبانيين ناقمون على رذريق لأنه اغتصب المملكة من ملكها الشرعى غيطشه وأن أولاد الملك المقتول يودون لو ينصرهم عليه وكاشفوه بهذا الأمر سرا فاستأذن موسى الخليفة فى غزو الاندلس فأذن له.

غزوة طريف:

فى رمضان سنة ٩١ للهجرة (٧١٠ للميلاد) أرسل موسى بن نصير طريف بن مالك البربرى فى مائة فارس وأربعمائة راجل لغزو بلاد الشاطئ الجنوبى من الاندلس فجازوا البحر فى السفائن وغزوا بعض الثغور الجنوبية بمعونة يوليان وباسم القائد سميت مدينة طريف التى هى فرضة على المجاز ثم عادوا بغنيمة جليلة[١].

هذه الغزوة كانت مقدمة للفتح يَجِسّ بها موسى نَبْض الاندلس.

= ذلك بما فى استطاعتهم فأسر الأمر فى نفسه زمنا واستخبر سرا عن حالة اسبانيا وأهليها وغنى البلاد ونظام حكومتها وقوة ملكها والخصومات والعداوات القائمة بين أحزابها وأن يوليان حاكم سبتة هو الذى نقل إليه جميع ما يحتاج إلى معرفته بالضبط وكشف له حالة الشعوب الاسبانية واختلال حكومة الملك رذريق وظلمها وكراهة الرعايا إياه وإنهم يعدونه غاصبا المملكة من القوط وأن هذا الفريق أولاد غيطشة ومن على شاكلتهم).

(١) فى نفح الطيب صحيفة ١٢٠ (كتب موسى بن نصير إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك يخبره بالذى دعاه إليه يوليان من أمر الاندلس ويستأذنه فى اقتحامها فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الاهوال فراجعه أنه ليس ببحر زخار وإنما هو خليج يبين منه للناظر ما خلفه فكتب إليه وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا قبل اقتحامه فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البرابرة اسمه طريف فى أربعمائة رجل معهم مائة فارس سار بهم فى أربعة مراكب فنزل بجزيرة تقابل جزيرة الاندلس المعروفة بالخضراء التى هى اليوم معبر سفائنهم ودار صناعتهم ويقال لها اليوم جزيرة طريف لنزوله بها وأقام بها أياما حتى التأم إليه أصحابه ثم مضى حتى أغار على الجزيرة فأصاب سبيا لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسنا ومالاً جسيما وأمتعة وذلك فى شهر رمضان ٩١ للهجرة).

فتح طارق بن زياد اسبانيا[١]

فى سنة ٩٢ للهجرة (ابريل سنة ٧١١ للميلاد) جَهَّز موسى نحو ١٢ ألفا تحت امرة طارق بن زياد لفتح الاندلس فتوجهوا ومعهم يوليان وعبروا مجاز هرقول[٢] فى السفائن ونزلوا جبلا يسمى اليوم جبل طارق وفتحوا حصن قرطاجَنَّة وكان فى سفح هذا الجبل ثم إنهم انسابوا فى أرض الاندلس وكان العامل عليها يقال له «تدمير» فأرسل يخبر الملك[٣] رذريق ويستنجده فجاء هذا بجيش يبلغ على ما

(١) قال رومى المؤرخ «إن طارقا كان عاملا على طنجة من قبل موسى فلما انتخبه قائدا أقام مقامه ابنه مروان بن موسى وكان الجيش مؤلفًا من ١٢ ألف بربرى من حامية طنجة وبعض مئات من العرب أبحروا فى السفائن ومروا من طنجة إلى سبتة ومن هذه إلى الشاطئ المقابل ويظهر أن يوليان كان يرشدهم فنزلوا جزيرة صغيرة ظهر لهم من بعد أنها كلها خضراء فسموها الجزيرة الخضراء واستولوا على جبل مجاور لها وتحصنوا فيه فسمى أولا جبل الفتح ثم أخذ اسم الفاتح فسمى جبل طارق.

(٢) يقال إن طارقا بعد أن عبرت جنوده المجاز أحرق السفائن كى يقطع من عساكره أمل التقهقر وأن يختاروا إما الفوز وإما الموت.

(٣) قال رومى المؤرخ إنه كتب إليه ما تعريبه:

«مولاى حل بأرضنا قوم لا ندرى أهبطوا من السماء أم نبعوا من الأرض هاجمونى فقاومتهم بكل قواى لأدفع غائلتهم ولكن اضطررت إلى التقهقر لكثرة عددهم وبسالتهم فأرجوك يا مولاى أن تجىء بنفسك مسرعا ومعك ما فى وسعك حشده من الجنود».

هذا الخطاب أوقع الرعب فى قلب الملك فجمع وزراءه وقواده... ووجه نخبة فرسانه لينضموا إلى جيش تدمير وسار الجمع نحو جيش طارق فوقع بين الجيشين مناوشات كان فيها الخذلان دائمًا للقوط.

وفى غضون ما كان يجمع رذريق جنوده من مقاطعاته ويعد للمسلمين ما استطاع من قوة وينادى القوط والرومان ليتحدوا ويدافعوا عن حوزة بلادهم كان جيش طارق يكر بين الجزيرة الخضراء وسدونة وشواطئ نهر يانه ناشرا لواء الفزع والرعب فى أفئدة الأهلين المأخوذين من هجوم ما كانوا يتوقعونه فجاء رذريق بجيش جرار لكنه قليل الدربة على الطعن والنزال واجتمع الجيشان على شواطئ وادى لكه Guadaléte بالقرب من مدينة سدونة القديمة التى بنى على اطلالها مدينة شريش المشهورة الآن عند الأوروبيين بكرومها.

يروى ١٠٠ ألف جندى واجتمع الجيشان على شواطئ (وادى لكه[١] Guadaléte) بالقرب من مدينة سدونة القديمة التى بنى فى محلها الآن مدينة شريش فلما رأى طارق كثرة العدد كتب إلى موسى يستنجده فأرسل إليه خمسة آلاف فارس من البربر.

اصطف المسلمون والكثير منهم يمتطى متون الخيل عليهم الزرد وفوق رءوسهم العمائم البيض وبأيديهم القسىّ العربية وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح والاتحادُ مِلءُ أفئدتهم والحماسة تغلى فى صدورهم وكلهم اخلاص لقائدهم الأكبر طارق يرمون إلى غرض واحد إما الفوز وإما الموت.

والقوط بين مشاة وفرسان معْتَدُون بالدروع والدرق والحراب والفئوس والمناجل والمقاليع قلوبهم شتّى.

وقبل اشتباك الفريقين خطب طارق يحرض جنده فقال: «أيها الناس، أين المفر، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم وان امتدت الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولأحملنكم على خُطّة أرخصُ متاع فيها النفوس، أبدأ بنفسى، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الالذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيها بأوفى من حظى وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات

(١) ويقال أيضا نهر لكه كما فى ابن الأثير ووادى لطه.

فى الدر والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الابطال عربانا ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم رذريق فقاتله، إن شاء الله تعالى، فاحملوا معى فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا لهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله فإنهم بعده يخذلون»[١].

فلما سمعوا كلام طارق ثارت حميتهم ووطدوا نفوسهم على الموت فى قتال عدوهم.

وكان جيش طارق يظهر أنه كثير العدد إذ قسمه إلى طوائف ليلقى الرعب فى قلوب أهل الاندلس وانضم إليه يهود اسبانيا والنصارى الذين هم من حزب يوليان ثم التحم الجيشان ووقعت معركة هائلة استمرت ثلاثة أيام[٢] ودارت فيها الدائرة على جيش رذريق فتفرق شذر مذر[٣].

---

(١) نفح الطيب ج١ ص ١١٣ و ١١٤.

(٢) من تاريخ رومى Romey (ص٣٩ج ٣) أن القتال استمر يومين بدون أن يرجح أحد الجيشين على الآخر وفى اليوم الثالث ضعفت عزائم العرب وأرادوا النكوص إلا أن طارقا بادر إلى الصفوف وصاح فى جنوده قائلا: «أين المفر البحر وراءكم والعدو أمامكم فلا مخلص لكم إلا شجاعتكم اتبعونى سأهجم على ملكهم واقتله أو يقتلنى» ثم ألقى بنفسه وألقوا بأنفسهم معه فى جيش القوط فاختل نظامه وفشلت جنوده وعرف طارق رذريق بشاراته الملوكية فهجم عليه بين حراسه وطعنه برمحه فى صدره فخر صريعا.

(٣) قال المؤرخ رومى (ص ٤١ج ٣) «ما كانت شجاعة العرب قاضية وحدها بفوزهم فإنهم فى =

جاء فى ابن الأثير «وكان على ميمنة رذريق وميسرته ولدا الملك الذى كان قبله وغيرهما من ابناء الملوك واتفقوا على الهزيمة بغضا لرذريق وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقى الملك لنا فانهزموا وهزم الله رذريق ومن معه وغرق رذريق فى النهر» ويروى أن طارقا قتله ـ ثم إن طارقا اقتفى أثر المنهزمين نحو نهريانه واخضع عدة بلاد فى زمن قريب.

لما جاء موسى خبر هذا النصر المبين أخذته الغيرة وخشى أن ينسب فتح اسبانيا إلى طارق وحده فجهّز جيشًا قويًا إلى اسبانيا وكتب إلى طارق أن يقف فلما جاء هذا كتاب موسى حدّثته نفسه أن يطيع أمر والى أفريقية لكن رأى الموقف حرجا وأن فى الطاعة مضاعفة الخطر عليه حيث خشى أن يترك للمنهزمين زمنًا تتجمع فيه جموعهم وتتحد كلمتهم ويعيدون الكرة على المسلمين فجمع رؤساء الجيش وبلّغهم كتاب الوالى فأجمعوا رأيهم أن الوقوف فى المقام الذى هم فيه غير مناسب وأنه يجب انتهاز الفرصة فى إبّانها وعدم ضياع الزمن النفيس واقتفاء أثر المنهزمين.

أخذ طارق بمشورتهم واستمر فى نصراته حتى فتح مدينة استجة[1] ECIJA بعد مقاومة شديدة ثم قسم جيشه إلى ثلاث فرق الأولى تحت امرة مغيث الرومى ووجّهها إلى قرطبة، والثانية يرأسها زيد بن قاصد السكسكى وسيّرها إلى مالقه

= اليوم الثالث انثنوا عن عزمهم وحدثتهم أنفسهم باليأس من النصر إلا أنه جاء سفير تحت جنح الظلام أبلغ طارقا أن ابنى غيطشة وعمهما أوباس مستعدون لأن ينضموا إلى صفوفه على شرط أن يتركهم بعد انتصاره يحكون القوط كما كان يحكمهم أبوهما وجدهما وأن يكتفى بالجزية وبجزء من أرض أسبانيا فقبل طارق ذلك، وفى الغد انضم إليه الاسقف (أوباس) وابنا أخيه والفرق التى كانت تحت امرتهم.

قال المؤرخ المذكور لو كانوا حددوا هذا الجزء لكان على حسب الظاهر البلاد المجاورة للمجاز (إقليم الاندلس).

(١) يقال إن الذى فتح استجه هو زيد بن قاصد ـ يقول بعض المؤرخين استجه بالتاء بعد السين وفى تاريخ ابن غذارى المراكشى (اسجة) بدون ثاء (الجزء الثانى صحيفة ١١).

ورأس هو الثالثة[١] وتوجه بها إلى طُلَيْطُلَه من طريق جيّان ـ أما مغيث فقد فتح قرطبة بطريقة غريبة في بابها حديثها يطول[٢] واسر علجها اثناء فراره إلى طلَيْطُلَه وابقى عليه ليقدم به على أمير المؤمنين حتى ينال بذلك الفخر العظيم وأما زيد فقد فتح مالقه MALAGA والبيرة ELBIRA بدون مقاومة ثم لحق بطارق.

واحتل طارق طُلَيْطُلَه TOLEDE عاصمة الملك بلا قتال وأصدر أوامر صريحة تمنع الجنود من النهب والاعتداء وتهدّئ روع الأهلين وتخوّل لهم الحرية فى دينهم والتمتع بأموالهم والتقاضى عند قضاتهم على شرط أن يدفعوا الجزية فى كل سنة وكانت تختلف من خُمْس الأموال المتحصلة إلى العُشْر وكانت أقل مما كان يجبيه منهم القوط وكان يترك فى كل مدينة مفتوحة حامية مختلطة من يهود البلاد والمسلمين[٣].

بعد أن وطّد طارق دعائم السلام فى طُلَيْطُلَه اتجه نحو الشمال مقتفيًا أثر الفارّين فوصل إلى وادى الحجارة GUADILHIDGIARA وعبره يريد جبال وادى

(١) يقال إن فرقة طارق كانت الرابعة وأن الثالثة هى التى ذهبت إلى مدينة البرة (غرناطه) والذى يظهر أن زيدا قسم فرقته إلى قسمين قسم ذهب إلى مالقة والآخر إلى غرناطه ثم اجتمع القسمان ولحقا طارقا.

(٢) انظر نفح الطيب.

(٣) قال رومى المؤرخ ص ج ٣ ما ترجمته (كانت شروط العرب إذا فتحوا مدينة أن يضربوا على أهلها خراجا سنويا إما خمس الأموال المتحصلة من الأرض والعقار وإما العشر، وأن يأخذوا رهائن وأن ينزعوا السلاح من الأهلين، وأن يستأثروا بالخيل ودواب النقل، وأن يستولوا على أموال النازحين عن الوطن وكانوا يتركون للسكان أملاكهم من أى نوع كانت ويمنحونهم الحرية الدينية لكن يشترطون عليهم أن تكون عبادتهم فى الكنائس خاصة وأن لا يمنعوا من يرغب فى الإسلام عن الدخول فيه».

وقال أيضا ص ٥٣ج ٣ «دخل طارق وحرسه قصر الملك المبنى فوق ربوة مشرفة على نهر التاجة LE TAGE فجمع منه اموالا طائلة وامتعة نفيسة.

يقول بعض المؤرخين: إنه وجد فى حجرة من القصر خمسة وعشرين تاجا من الذهب مزينة بالسوسن والحجارة القيمة النادرة الوجود وكان عدد التيجان عدد ملوك القوط الذين حكموا اسبانيا إلى رذريق وكان عادة القوط إذا مات الملك أن ينزعوا تاجه ويكتبوا عليه اسمه وسنه وعدد السنين التى حكمها».

رامه GUADORAMAS فاخترقـها من واد سمى فج طارق BUITROGO واستولى على مدن خلفـها منها مـدينة سالم MEDINA CELI وهى التى أحـرز منها على مـا يروى المائدة الشهيرة المنسوبة إلى سليمان وعاد إلى طليطله مثقلا بالغنائم.

جاء فى نفح الطيب نقـلا عن الرازى «أن ملاقاة جـيش طارق ورذريق كان يوم الأحد لليلـتين من شهـر رمضان فـاتصلت الحرب بينهـما إلى يوم الأحـد لخمس خلون من شوال بعده تتـمة ثمانية أيام ثم هزم الله المشركـين فقتل منهم خلق عظيم وحاز المـسلمون من عسكرهم ما يجل قدره فـكانوا يعرفون كبار العجم وملوكهم بخواتم الذهب فى أصابعهم ومن دونهم بخواتم الفضـة وعبيدهم بخواتم النحاس فجمع طارق الفئ وخـمَّسه ثم اقتسـمه أهله على تسعة آلاف من المـسلمين سوى العبيد والاتباع... ثم أقبل حتى نزل بأهل مدينة سدونه فامتنعوا عليه فشدد الحصار عليهم حتى نهكهم وأضـرهم فتهيأ له فـتحها عنوة فحاز منـهم غنائم ثم مضى منها إلى مدوّر ثم عطف على قرمونه ثم مال على اشبيـليه فصالحه أهلها على الجزية ثم نازل أهل استجـة وهم فى قوة ومعهم كل عـسكر رذريق فقاتلوا قتـالا شديدا حتى كثر القـتل والجراح بالمسلمين ثم إن الله تعـالى أظهر المسلمين عليـهم فانكسروا ولم يلق المـسلمون فـيما بـعد حربًا مـثلها وفـتحت المـدينة وضرب على أهـلها الجزية... قال يوليان لطارق قـد فضضت جيوش القوم ورعبوا فاعـمد إلى بيضتهم وهؤلاء أدلاء من أصحـابى مهرة فـفرّق جيـوشك معهم فى جـهات البلاد واعـمد أنت إلى طلَيْطُله حيث معظمـهم فاشغل القوم عن النظر فى أمرهم والاجـتماع إلى أولى رأيهم ففرّق طارق جيوشه معهم من استجـه فبعث مغيثا الرومى مولى الوليد بن عـبد الملـك إلى قرطبـة وكـانت من أعظم مدائـنهم فى سبـعـمائة فـارس لأن المسلمـين ركبوا جـميعًا خـيل العجم ولم يبق فيـهم راجلٌ وبعث جيشًـا آخر إلى مالقه وآخر إلى غرناطه مدينة البيـرة وسار هو فى معظم الناس إلى كورة جيَّان يريد طلَيْطله.

أما مغيث فقد فتح قرطبة ثم جمع يهودها وضمهم إلى مدينتها استنامة إليهم دون النصارى واختار القصر لنفسه والمدينة لأصحابه وأما من وجهّوا إلى مالقه ففتحوها ثم لحقوا بالجيش المتوجه إلى البيرة فحاصروا مدينتها غرناطة ثم افتتحوها عنوة وضمّوا اليهود إلى قصبة غرناطة وصار ذلك لهم سُنّة فى كل بلد يفتحونه أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها[١] (ومضى الجيش إلى تدمير وتدمير اسم العلج صاحبها سميت به واسم قصبتها اريوله فصالحوه بعد قتال شديد وسملت كورة تدمير من معرّة المسلمين) ومضى معظمهم إلى أميرهم طارق لفتح طليطله فالفاها خالية قد فرّ عنها أهلها ولجأوا إلى مدينة خلف الجبل فمضى خلفهم فسلك وادى الحجارة ثم استقبل الجبل فقطعه من فج سمى به بعد فبلغ مدينة المائدة المنسوبة إلى سليمان بن داود وهى خضراء من زبرجد حافاتها منها ودخلها وكان لها ثلاثمائة وخمسة وستون رجلا فأحرزها عنده ثم مضى إلى المدينة التى تحصنوا بها فأصاب حليا ومالا ورجع إلى طليطلة سنة ٩٣».

تتميم موسى فتح اسبانيا

أعَدّ موسى لغزو الاندلس بنفسه عشرة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل وبعد أن أقام مقامه فى القيروان ابنه عبد الله عبر بهم من أفريقية إلى الأندلس فى رجب سنة ٩٣ (إبريل سنة ٧١٢)[٢] فأخذ أولا مدينة شذونة ثم أخذ قرمونة بحيلة وهى أن أصحاب يوليان دخلوها كأنهم فلاّل وطرقهم موسى بخيله ليلا ففتحوا له الباب وأوقعوا بالاحراس وملكوا المدينة ثم مضى موسى إلى اشبيلية SEVILE جارتها

(١) قوله ومضى الجيش إلى قوله من معرة المسلمين لا يلتئم مع ما هو مذكور فى التواريخ الافرنجية من أن الذى قاتل تدمير هو عبد العزيز بن موسى.

(٢) فى تاريخ دوزى صحيفة ٣٧ من الجزء الثانى أن دخول موسى الاندلس كان فى يونية سنة ٧١٢ فحقق.

فحاصرها وهى أعظم مدائن الاندلس شأنا وأعجبها بنيانًا وأكثرها آثارا وكانت دار الملك قبل القوط فلما غلبوا على ملك الاندلس حوّلوا السلطان إلى طُلَيْطُله وبقى رؤساء الدين فيها ففتحها بعد حصار شهر ثم فتح مدنًا أخرى بين النهر الكبير ونهر يانه[1] وما توقف إلا أمام مدينة ماردة فإنها كانت حصنا منيعًا وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر وقد قاومته حتى أضاع فى حصارها كثيراً من رجاله وما دخلها إلا أول شوال سنة ٩٣ (١١ يوليو سنة ٧١٢) حين جاءته النجدة من أفريقية تحت قيادة ابنه عبد العزيز.

قال بعض مؤرخى الافرنج: «إن موسى شدّد على الماردين شروط الصلح فإنه مع فرض الجزية السنوية وأخذ أموال القتلى وأموال النازحين عن المدينة طلب أن تسلم إليه أموال الكنائس وحليها وأن يحوّل نصفها إلى مساجد وأن يأخذ رهائن من أشراف القوط الذين فرّوا من واقعة سريش وكان من بينهم ملكة القوط أرملة رذريق المسماة اجلونه EGILONE أو اجلا EGILA ومؤرخو العرب يسمونها ايله AYLA».

انتقض أهل اشبيلية على المسلمين فقتلوا ٨٠ رجلا من حاميتها وأتى فَلُّهم إلى موسى وهو بماردة فوجّه ابنه عبد العزيز إلى اشبيلية ليقتصّ من الثائرين فجاءها فيهم فتكا ذريعًا حتى استقامت الأمور.

من ماردة سار موسى إلى طُلَيْطُله وكان قد بارحها طارق ليغزو قسطيلة القديمة LA VIEILLE CASTILLE وكان موسى يفتح ما مر عليه من البلاد وفرسانه يعلنون الأهلين: «إن العرب ما دخلت جزيرة الاندلس لظلم أهلها أو سلب أموالها أو تخريب مساكنها أو احراق زرعها بل لهدايتهم إلى معرفة الله وأنهم لا يحاربون إلا العصاة المعارضين بدون جدوى».

عاد طارق إلى طليطله قبل وصول موسى فبادر إلى مقابلته فجتمعا فى طلبيره

(١) يقال أيضا الوادى الكبير ووادى يانه.

TALAVERA OU TALBERA ثم عادا إلى عاصمة الملك فطالب موسى طارقًا باداء ما عنده من مال الفيء وذخائر الملوك فقدّمها إليه وبينها المائدة الزمرد ناقصة رجلا ثم جمع موسى رؤساء الجيشين ليحاكم طارقا فسأله أمامهم عن مخالفة أمره فاعتذر طارق بأن الحالة قضت عليه بذلك وأن رؤساء جيشه أجمعوا رأيهم على متابعة السير (ولولا ذلك ما كان فتح العاصمة وأمهات المدن فى زمن قريب) ما أقنع موسى هذا الاعتذار بل عزل طارقا من قيادة جيشه وحبسه وعهد بالقيادة إلى مغيث الرومى ولكن هذا الشهم أبت نفسه الكريمة أن يخلف قائده ودافع عنه بجراءة أمام الوالى ولما أصرّ موسى على ما حكم به بلّغ مغيث المشكلة إلى الخليفة ليفصل فيها فورد منه الامر باعادة طارق إلى قيادة جيشه.

فى هذه الاثناء كان عبد العزيز يفتح الجنوب الشرقى من الاندلس فاستولى على لورقه LORCA وصالح تدمير الذى كان التجأ إلى اريوله ORIHUE'LA على أن يدفع الجزية ويكون أمير سبع مدن وكتبا عهداً بذلك وعند رجوعه استولى على بيّاسه BAEZA وجيّان JAEN وانتقيرة ANTEQUERA بدون مقاومة.

بعد أن صالح موسى طارقا اتجه طارق الشرق صاعدا إلى منابع نهر التاجه حتى نزل السهول التى يرويها نهر ابره ـ واتجه موسى نحو الشمال الغربى فخضعت به بلاد بدون مقاومة منها سلمنقه SALAMANQUE ثم عاد إلى الشرق سائرًا مع مجرى نهر دويرو DUERO حتى نزل وادى نهر ابره وقابل طارقًا محاصرا مدينة سرقسطة SARAGOSSE وكان هذا قد فتح المدن التى حولها ولكن المدينة استعصت عليه ففتحاها بعد حصار شهر ثم احتلا وشقه HUESCA وقلهرّة CALAHORRA وطرّكونه TARRGONE ولاردة LERIDA ثم اقتسم القائدان الجيش فمشى موسى على شاطئ البحر المتوسط متجها نحو الشمال ففتح برشلونه BARCELONE وچيرونه GERONE ورّساس ROSAS وامبوريه AMPU-

RIA وسار طارق متجها إلى الجنوب ففتح طرطوشه TARTOSE ومربيطره MURVIEDRO وبلنسية وشاطبة ودانية واستمرّ إلى حدود أمارة تدمير.

والبلاد التى كان يفتحها طارق كان أهلها آمنين على أرواحهم وأموالهم عائشين بسلام فى كنف المسلمين وما كان هؤلاء يأخذون إلا أموال من هجروا الأوطان.

عاد موسى إلى الوسط ومنه إلى الشمال الغربى ذاهبا إلى لوغو LUGO فى جبال غليسية GALICE.

يذكر بعض المؤرخين فرقًا بين سلوك القائدين فى فتوح الاندلس فيقول: إن موسى ما كان يفتكر إلا فى جمع الأموال والاستئثار بها وطارقا كان يقتسم الغنائم هو وجنوده بالعدل بعد أن يفصل منها الخمس كاملا للخليفة، قال بعضهم: إنه كان يكاتب الخليفة فى أعماله مباشرة معرضًا عن جانب موسى وهذا كان يشكو إلى أمير المؤمنين عصيان طارق وتبذيره ومخالفته لاصول الحرب فمن أجل ذلك دعا الخليفة الوليد بن عبد الملك القائدين إليه فأرسل إليهما مغيثًا الرومى الذى كان جاء إلى دمشق لتبليغ الخليفة تفصيل نصرات طارق الأولى فى الاندلس.

أما طارق فقد أجاب دعوة أمير المؤمنين بدون توقف وأما موسى فتلكأ وأخذ يستعد لغزو القوط الملتجئين إلى جبال غليسية واستوريا فجاءه رسول آخر وهو أبو نصر بين جيشه فى لوغو وأخذ بعنان فرسه وذكّره بطاعة أمر الخليفة فلم يسعه إلا الانقياد.

ويروى أنه كان فى نية موسى أن يفتح أوروبا بتمامها ويصل إلى الشام من شواطئ البحر الأسود فأخذ يستعد لهذا المشروع العظيم ولكن حال دون ذلك أن دعاه الخليفة إليه فى يوليو سنة ٧١٣م فأجاب الدعوة ومعه طارق وأقام ابنه عبد العزيز بن موسى حاكمًا على اسبانيا وجعل دار حكمه مدينة اشبيلية.

جمع موسى غنائمه الواسعة وعبر المجاز إلى المغرب فى ذى الحجة سنة ٩٥ للهجرة ومعه ثلاثون ألف نسمة من السبى من بينهم أربعمائة فتى من أُسَر القوط

الملوكية وقفل إلى المشرق بعد أن استخلف على إقليم طنجة ابنه عبد الملك وعلى افريقية أكبر أولاده عبد الله.

سأل موسى مغيثًا أن يسلم إليه علج قرطبة الذى كان فى إساره فامتنع فانتزع منه قسراً ثم خطر له أن يضرب عنقه مخافة أن يدعيه مغيث لدى الخليفة.

تألب طارق ومغيث على موسى وسبقا إلى دمشق وشكوا إلى سليمان بن عبد الملك منه ورمياه بالخيانة وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج ـ قبل وصول موسى إلى دمشق بأيام طرأ على الوليد مرض ثقيل وكان ولىُّ عهده أخوه سليمان بن عبد الملك فأراد هذا أن يؤجل الاحتفال بدخول فاتح اسبانيا إلى أول خلافته فكتب إليه أن يقف حيث يجيئه كتابه وأن يؤخر وصوله إلى دمشق أيامًا فجاءه الكتاب فى طَبَرِيّة فلسطين فلم يعمل بما فيه امّا صداقة للوليد وإمّا ظنا منه أنه لا يموت قريبا فكان هذا سبب حقد سليمان على موسى.

حضور موسى وطارق مجلس سليمان:

مات الوليد وخلفه سليمان ويروى أن القائدين حضرا مجلسه فأخذ موسى يغالى فى قيمة مائدة الزمرد التى مر ذكرها فقال طارق: «يا أمير المؤمنين أنا الذى أحرزتها وأعطيته اياها فى طليطله» فرد موسى وقال: «إنها من غنائمى» قال طارق إنها تنقص رجلا فأين هذه الرِّجْل ـ أجاب موسى بأنه وجدها هكذا ـ قال طارق متهكما: «من هذه يحكم بصدق موسى» وأظهر الرِّجْل الناقصة التى كان نزعها من المائدة وحافظ عليها ـ فبهت عند ذلك والى أفريقية وعاقبه سليمان بالوقوف فى الشمس المحرقة يوما كاملا.

موسى وإن كان أساء معاملة طارق إلا أنه كان شهمًا شجاعًا ذكى القريحة فهو الذى فتح اقاليم المغرب واسبانيا وكان يجب على الخليفة الاموى أن يشكر له من أجل اعماله الجليلة ويتغاضى عن حبه الاستئثار بالفخر فى فتوح الاندلس.

قال ابن خلدون: «نهض موسى من القيروان سنة ٩٣ للهجرة فى عسكر ضخم من وجوه العرب والموالى وعرفاء البربر ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الاندلس وتلقاه طارق وتمم موسى الفتح وتوغل فى البلاد إلى برشلونة فى جهة الشرق واربونه[١] فى الجوف وصنم قادس فى المغرب ودوخ أقطارها وجمع غنائمها واجمع[٢] أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويخوض بلاد الاعاجم مجاهداً فى أمم النصرانية مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة ونمى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب ورأى أن ما هَمَّ به موسى غَرَر[٣] بالمسلمين فبعث إليه بالتوبيخ والانصراف وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو وكتب له بذلك عهده فَفَتَّ ذلك فى عزم موسى وقفل عن الاندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز لغزوها وجهاد أعدائها وأنزله بقرطبة[٤] فاتخذها دار امارة واحتل موسى بالقيروان سنة ٩٥ وارتحل إلى المشرق سنة ٩٦ بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العَجَل والظهر وولى على أفريقية ابنه عبد الله وقدم على سليمان فسخطه ونكبه».

عبد العزيز:

استخلفه أبوه موسى على اسبانيا كما ذكرنا عند قفوله إلى المشرق سنة ٩٥ للهجرة (٧١٣ للميلاد) وجعل مقره اشبيلية فساس البلاد أحسن سياسة:

ولّى عمّالا على أقاليمها يديرون شئون المدينة وكانوا يسمون بالقوّاد وكانوا حكامها العظام.

وأقام حَسّابين كانوا يسمونهم بالمحتسبين يجبون الخراج من البلاد بطرق

---

(١) فيه نظر.

(٢) اجمعت المسير وعليه عزمت عليه.

(٣) الغرر الخطر.

(٤) فى غيره اشبيلية وهو الصحيح.

نظامية وكان مقداره خُمْس الأموال المتحصلة وأحيانًا كان يخفض إلى العُشْر فى بعض الجهات.

ورفع عن الأسبانيين اصر الاستعباد القوطى الرومانى فكانوا فى عهده آمنين على أنفسهم وأموالهم ودينهم وحريتهم وعاداتهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم فيفصل بينهم فى المنازعات قضاة منهم وفى أحوالهم الشخصية قسوسهم لا تكلفهم حكومة الفاتحين إلا دفع الخراج فلهذا ألفوا حكم العرب.

لما ولى عبد العزيز جزيرة الاندلس تزوج أيلة (اجلا EGILA) أرملة الملك رذريق وهى إحدى الرهائن التى انتقاها موسى من اشراف ماردة وبقيت على دينها وسماها زوجها أم العصَم أى القلائد[1] ويقول بعض المؤرخين: إن هذا الزواج أثّر فى أخلاق الوالى فعامل نصارى اسبانيا بالحسنى وأن أيلة قبل الزواج كان لها رأى فى عقد الصلح بين عبد العزيز وتدمير، وإن أعداء عبد العزيز من العرب نقموا عليه المغالاة فى استرضاء النصارى المغلوبين وعدوا سكوته عن اخضاع الملتجئين منهم إلى استوريا نحو الشمال تشيعا إليهم فإنه بعد أن فتح لوزيتانيا LU-SITANIE (المعروفة الآن بالبرتغال) لم يتجاوز نهر دويرة بل رجع إلى اشبيلية وأقام فيها يدير دولاب الحكومة وما زال عُمَّاله يفتحون الشمال الشرقى حتى استولوا على مدينة بنپلونه PAMPELUNE ومرّ جبال البشكنس وبالغوا فى التنديد به حتى رموه بالتنصر وهو براءٌ مما يفترون إذ لم يقم على دعواهم دليل.

بَلَغُوا مثالب افتروها على عبد العزيز إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فدفعه سخطه على موسى أن اتخذ رسالتهم حجة للأمر بقتل ابنه والى الاندلس، جاء هذا الامر إلى خمسة من رؤساء الجيش المحتل اسبانيا فضربوا عبد العزيز بالسيوف ضربة واحدة وهو يصلى فى المسجد صلاة الصبح وقطعوا رأسه

(١) كعنب جمع عصمة وهى القلادة كذا يقول بعض المؤرخين وفيه مناسبة ظاهرة وفى تفح الطيب أنه سماها أم عاصم وغير ظاهر لهذه التسمية مناسبة وقيل: إنه سماها أيضا زهرة بنت عيسى يريد أنها وردة المسيحيين.

ووضعـوه فى علبة ملئت عنبرا وارسلوه إلى الخليـفة ودفنوا جثـته فى داره سنة ٩٧ للهجرة (٧١٥ للميلاد) وكانت مدة حكمه نحو ثمانية عشر شهرا.

عرض سليمان الرأس على موسى فتجلد للمصـيبة وساءت أيامه الأخيرة حتى مات فى وادى القرى حزنا على ابنه سنة ٩٧ للهجرة (٧١٦ للميلاد).

تجاوز سليمـان حدود الإنسانية والدين واتبع هواه فى الانتـقام من موسى وفى قتل ابنه عبد العزيز وهى إحدى زَلاته.

طارق ويوليان وأيلة أيامهم الأخيرة مجهولة لم يذكر المؤرخون عنها شيئًا.

جاء فى نفح الطيب أن أولاد غيطشه سألوا طارقًـا بعد الفتح: أأنت أمير نفسك أم فوقك أميـر؟ فقال: بل على رأسى أمير وفـوق ذلك الأمير أمير عظيم فـاستأذنوه فى اللحاق بمـوسى بن نصير بأفـريقية فـأذن وعرّفه بشـأنهم وما أعطاهم من عهده وهذا انفذهم إلى أمـير المؤمنين الـوليد بدمشق وكـتب إليه بما عـرفه به طارق من جمـيل أثرهم فلمـا وصلوا إلى الوليد أكـرمهم وأنفـذ لهم عهـد طارق فى ضـياع والدهم وعـقد لكل واحـد منهم سجـلا فقـدموا الاندلس وحـازوا الضياع أجـمع واقتـسموها على مـوافقة منهم فصـار منها لكبيـرهم (ألمند) ألف ضيعـة فى غرب الاندلس فسكن من أجلهـا اشبيلية وصـار لأرطباش ألف ضيعـة فى الوسط فسكن من أجلها قرطبة وصار لرمله ألف ضيعة فى شرق الاندلس وجهة الثغر فسكن من اجلهـا طليطـله فكانوا على هذه الحـال صـدر الدولة العـربيـة إلـى أن هلك المند وخلف ابنتـه ساره وابنين فبـسط يده (ارطباش) على ضـياعـهم فسـارت ساره إلى الخليفة هشام بدمشق فشكت ظلامتها من عمها فكتب إلى حنظلة بن صفوان عامله بأفريقية بإنصـافها من عمها وإمضـائها وأخويها على سنة الميراث فـيما كان فى يد والدهم. اهـ. من حديث طويل صحيفة ١٢٦.

مات سليمـان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ - ٣ اكتوبر سنة ٧١٧ بـعد أن حكم سنتين وثمانيـة أشهر وفى عـهده غزا أخـوه مسلمة بـن عبد الملك أرض الروم وحـاصر القسطنطينية وفتح يزيد بن المهلب عامل خراسان جرجان وطبرستان.